الفقر يتهدد "العفة"

في وقت مبكر من الحياة الإنسانية خاض البشر صراعاً مع نوازعهم وغرائزهم. كما خاضوا آخر مع الأقدار الكونية من أجل البقاء. وعلى الساحات التي شهدت معارك الإنسان تلك مع نفسه والأقدار تجد "البشر" ما بين صرعى وجرحى، وآخرين في فتوة وعافية، "وما ربك بظلام للعبيد".

هكذا مضت الحياة بتضاريس أهلها وألوانهم وأذواقهم. يقوى الإنسان ويضعف. يموت ويحيا. يغتني و يفتقر. يشقى ويسعد. يفرح ويترح. لكنه في كل الحالات يعيش حالة "ما" من الصراع. حتى إن علماء الدين يؤكدون أن هذا الصراع يمضي مع الإنسان إلى آخر لحظة في الدنيا مع الشيطان، ينهزم فيها الانسان أو ينتصر.

إذا كانت الصراعات بهذه الكثرة، فإن الحديث هنا سيقتصر على واحد منها بين "الضمير والفقر". أحياناً يعبرون عن الضمير بالدين والشرف والكرامة، وعن الفقر بالفاقة والحاجة والحرمان والبؤس وكاد أن يكون كفراً. أيا كانت الأسماء، نسأل: أي الفريقين أشد بأساً وأكثر تهديداً للآخر؟

في التنظيرات الرومانسية تتداول العرب أمثالاً من قبيل "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها" كناية عن أن الحر أنثى أو رجلاً يتحمل مقاساة الشدائد في مقابل أن تبقى كرامته موفورة.

لكن التنظيرات الميدانية تجيء في معظم الحالات مناقضة لهذه المثالية المفرطة، إذ تشير التقارير إلى أن الدول الفقيرة مالياً أو تربوياً باتت مناجم للبغاء في العالم.

وترى المسؤولة في مركز التنمية الاجتماعية في الرياض فاطمة الهويدي أن الفقر يأتي العامل الثاني في ارتكاب النساء للمحظورات السلوكية.

عادت بمال وشرف ضائع!

وأكدت في اتصال هاتفي مع "الحياة" أنها بحكم عملها اطلعت على حالات مزرية لأسر تعاني فقراً شديداً وقلة في الدين دفعها إلى التغاضي عن سلوكيات بناتهم اللاتي "يعدن في المساء أو بعد أيام بحصيلة لا بأس بها من النقود"!

وأضافت: "إن أمّاً أتت إلي عندما كنت أقيم برنامجاً توعوياً في أحد الأحياء وعبرت لي عن سوء حالها المادي انتهى بها إلى دعوة ابنتها الشابة إلى التسول عند إشارة المرور، لكنها لم تتوقع أن تكون خطورة الأمر بنفس الحجم الذي حدث، إذ قالت إن ابنتها غابت يومين في إحدى المرات وعادت بشرف ضائع بعد أن ساومها شخص عند الإشارة، واستجابت تحت وطأة الحاجة".

الأم التي شكت للهويدي لم تكن تسأل عن إعادة شرف ابنتها الضائع ولكنها تحاول أن تشرح للمسؤولة الاجتماعية مرارة واقعها المادي، غير أن الهويدي علقت بأن "الفقر ليس حجة لأن تبيع المرأة جسدها أو الرجل كرامته. فالنبي -صلى الله عليه وسلم- عندما جاءه رجل وطلب منه الصدقة دعاه إلى العمل، واشترى له فأساً لكي يحتطب، في إشارة إلى أن أي عمل مهما كان صغيراً في أعين الناس هو أشرف من ذل السؤال، ويحفظ للإنسان كرامته".

ولذلك فإن الهويدي وزميلاتها في مركز التنمية الاجتماعية يقمن بتوجيه الشاكيات إلى أعمال يسيرة توفر لهن كسباً حلالاً "مثل بيع المناديل أو المياه أو بعض الأعمال الشعبية" ويُحلِّنَ ذوات المشكلات الملحة إلى جمعية النهضة النسائية الخيرية.

لكنها تقر بأن ذلك -إضافة إلى كل الجهود المبذولة من جانب الدولة ممثلة في وزارة الشؤون الاجتماعية- لن يمنع المرأة إذا قل وازعها الديني من الاتجار بجسدها، خصوصاً إذا تلقت عروضاً مغرية من ضعفاء النفوس، في وقت تواجه فيه وطأة الفقر والحرمان".

الوازع الديني قبل الفقر

وتتابع:" أعتقد أن الدين هو الحصن الذي يدفع عنا الانحراف الأخلاقي فنحن نرى أن الممارسات الأخلاقية الشاذة أسبابها في المقام الأول ضعف الإيمان والوازع الديني، والدليل على ذلك أن

هناك متورطين في بعض السلوكيات الخاطئة وهم ليسوا فقراء وربما كانوا أغنياء".

وتتقاطع الدكتورة سعاد يماني مع الهويدي عند هذه الجزئية لكنها اعتبرت "البيئة أكثر تأثيراً من الفقر ومن الوازع الديني على سلوكيات الأفراد والأسر، ولذلك فإننا نرى الأسر المفككة والأحياء الأكثر فقراً هي الأكثر احتضاناً للسلوكيات الخاطئة والظواهر الإجرامية، وهذا يلقي مسؤولية مضاعفة على الجهات التربوية والاجتماعية في القيام بواجباتها نحو الأحياء الفقيرة في المدن والأطراف".

صامدات يخشين الانهيار!

وفي اعتقاد عضو الجمعية الوطنية لحقوق الانسان سهيلة زين العابدين حماد تتجاوز خطورة الفقر جوانب الغواية السلوكية إلى "العمالة والخيانة الكبرى".

وتقول لـ "الحياة": الفقر يشكل آفة اجتماعية وأخلاقية على المجتمعات، ولا سيما عند غياب الوازع الديني، والتربية السليمة، ومن خلال واقع المجتمعات والبيئات الفقيرة إذ تتغلب عند الفرد نوازع الشر على الخير، وتتغلب غرائز حب البقاء والجنس على القيم والأخلاق، فأمام الجوع والحاجة إلى الطعام والمأوى والملبس قد تضعف النفس البشرية فتضطر إلى السرقة، أو القتل في سبيل الحصول على المال، وقد تضعف أمام إغواء المال فينضم صاحبها

إلى خلية إرهابية، أو إلى جهاز مخابرات للعدو ليتجسس على بلاده لصالح عدوها اللدود".

وأضافت: "كما أن ضعف الإنسان أمام غريزة الجنس بات شائعاً فقد يرتكب فاحشة الزنا مع إحدى محارمه التي ينام معها في حجرة واحدة لضيق السكن، وقد ينام وجسده يلاصق جسد أخته، وأثبتت الدراسات أنَّ كثيراً من جرائم زنا المحارم تكثر في الأسر الفقيرة. كما نجد أنَ ظاهرة العنف الأسري تكثر أيضاً في هذه الأسرة".

وتكمل: "أما المرأة فالفقر قد يضطرها إلى بيع جسدها من أجل لقمة العيش، وكم من امرأة مارست البغاء لشدة حاجتها للمال، وحتى لو طرقت أبواب العمل الشريف فقد يساومها رب العمل على تسليم نفسها له مقابل تعيينها لديه، أو يتحرش بها جنسياً، وكم من فتاة هاتفتني تطلب المعونة المالية هي وأخواتها، وأنَّهن صامدات من أجل الحفاظ على شرفهن، ويخشيِّن من الانهيار والضعف"!

وتذهب حماد إلى أن إدراك الدولة حجم خطورة ذلك "كان دافع خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله إلى العمل من أجل مكافحة الفقر، وتشجيع الشباب والأسر على عمل مشاريع صغيرة تُمول من صندوق مكافحة الفقر".

لكنها ترى القضاء على الفقر غير ممكن إلا "بالقضاء على البطالة وتوفير فرص العمل للشباب من الجنسيِّين، ومنح المرأة حق

الولاية على نفسها ومالها، والتعامل معها معاملة كاملي الأهلية، وهذه حقوق منحها إياها الإسلام، ومن أسباب فقر المرأة السعودية تجريدها من هذه الحقوق، وعدم حمايتها ممن يستغلها ويستولي على أموالها، ويحرمها من ميراثها وحقوقها المالية من أقربائها ووكلائها".

لا يمكن التسليم

لكن الباحث الاجتماعي والمتخصص في الشريعة عبد الله بن ناصر السدحان، رجح في دراسة علمية مطولة أعدها أن الفقر ليس عاملاً أساسياً في الانحراف السلوكي وإن كان موجودا، على اختلاف بين الدارسين الاجتماعيين في ذلك.

ومع أن السدحان أكد ابتداء أنه سيذكر كل جوانب "الظاهرة الاقتصادية والعلاقة بينها وبين السلوك المنحرف" إلا أنه يرى أن لاغرابة في ظهور آراء تربط "بين الانحراف السلوكي وبين التغيرات الاقتصادية المختلفة، مثل الغنى أو الفقر، وحالة الرخاء أو حالة الكساد الاقتصادي، أوالبطالة"، في وقت يلعب فيه الاقتصاد دوراً أساسياً في تقدم أو تأخر الأمم، ولذلك عده بعض الباحثين من أمثال (كيتليه) و(ميشيل فري) و(بونجر) و(سيرك بيرت) عاملاً من العوامل المهمة الموجهة للسلوك الإنساني، ويؤثر عليه تأثيرًا يلمسه كل دارس للسلوك الإنساني"، بل هناك من يرى الظرف الاقتصادي للمجتمع "أول الظواهر الاجتماعية التي وقف عندها المفكرون حين أرادوا دراسة ظاهرة الجريمة، ابتداءً من فلاسفة اليونان وحتى العصر الحديث".

ويضيف: "أصحاب هذا الاتجاه (ربط السلوك الاجرامي بالفقر) يرون أن للفقر دوراً في رفع معدلات انحراف السلوك، خاصة في جرائم الأموال، والتسول، والتشرد، والدعارة في بعض صورها.. ويعتمد أصحاب هذا الاتجاه فيما ذهبوا إليه على نتائج العديد من الدراسات التي ظهر فيها أن غالبية مرتكبي السلوك المنحرف هم من ذوي المستويات الاقتصادية المتدنية.. ومن أبرز الدراسات في هذا المجال الدراسة التي قام بها العالم الإيطالي (فورنساري دي فيرس) عام ١٨٩٤م، وشملت إيطاليا وإنجلترا وإيرلندا وجنوب ويلز، وشملت العديد من أنواع الجرائم، وانتهت إلى القول: إن الفقر هو البيئة التي تتهيأ فيها كل الدوافع لارتكاب الجريمة" وغيرها.

ويعزو أصحاب هذا الرأي السلوك المنحرف للفقر، كما يقول السدحان من واقع أن الفقير يعجز عن توفير "بعض متطلبات الحياة الضرورية للفرد والأسرة، وكذلك انعدام العناية الصحية، وانقطاع الأبناء عن مواصلة التعليم، إضافة إلى (حرمان الأولاد من أسباب اللعب والتسلية في المنزل، وخروجهم إلى الشوارع لقضاء الوقت وقتله، والاختلاط بكثير من رفاق السوء، كما أنه قد يرغم الأطفال على ترك مقاعد الدراسة.. ونتيجة لهذا تتفشى الأمية بينهم، فيشبوا جهلاء لا يقدرون على تمييز النافع من الضار، والخير من الشر، والفضيلة من الرذيلة، وبذلك يكونون لقمة سائغة لتيار الانحراف والجنوح)".

غير أن السدحان على الرغم من ذلك استبعد إمكان التسليم "بأن الفقر عامل رئيس لارتكاب السلوك المنحرف، بل هو عامل من العوامل المتعددة التي تؤدي إلى السلوك المنحرف، بدليل وجود الملايين من الفقراء يسلكون الطريق السوي رغم فقرهم، إضافة إلى وجود سلوك منحرف بين أفراد الفئة الغنية، وكما يذكر العالم (بيرت): (إذا كان أغلبية المجرمين من الفقراء، فإن أغلبية الفقراء ليسوا من المجرمين). يضاف إلى ذلك ظهور بعض الدراسات التي أثبتت عدم وجود علاقة بين الفقر والسلوك المنحرف، مثل دراسة الباحثة الإنجليزية (ماري كاربنتر) عام ١٨٥٣م، التي انتهت إلى القول: بأن تأثير الفقر على الأحداث أقل بكثير من تأثير التكوين الثقافي والاجتماعي لآبائهم عليهم، ودراسة (شليدون والينور غلوريك) عام ١٩٥٠م، التي أجريت على (١٠٠٠) حدث (٥٠٠ منحرف، و٥٠٠ غير منحرف)، وظهر فيها أن عدد الفقراء من أسر غير المنحرفين لا يختلف كثيرًا عنه في أسر المنحرفين".

السدحان اعتبر في الدراسة التي أعدها ونشرها موقع وزارة الأوقاف القطرية أن الباحث الغربي (سذرلاند) من أشد الناس الذين انتقدوا ربط الانحراف بالفقر، بل على العكس من ذلك يرى أن الانحراف مرتبط بالثراء، إذ الأثرياء لديهم قدرة على ارتكاب الجريمة بما يملكون من نفوذ في المجتمع بسبب ثرائهم، وذلك مما يعينهم على إخفاء أمرهم عن السلطات".